

كله، ولكن هذه النكبة الملمّة، والكارثة الملحة قد باعدت بينهما، فالأم محنقة على ابنتها، والفتاة نافرة من أمها، لا يتصل بينهما حديث ولا تثبت عين إحداهما في عين الأخرى، إنما تتفاهمان بالإشارة أو الجمجمة، فإذا التقت أعينهما فما أسرع الإطراق إلى رأسيهما! ثم ما أسرع ما تدعو حاجة مرتجلة منتحلة إحداهما إلى أن تولي مدبرة لتتأى عن صاحبتهما فلا يكون بينهما نظر ولا حديث.

هل أستطيع أن أردّ ما بينهما إلى طبيعة الصلة بين الأم البائسة والابنة المحزونة؟ بل هل أستطيع أن أعيد الأمر بيننا إلى شيء مما كان عليه قبل هذه الكارثة من هذه المودة السهلة التي لا تكلف فيها ولا تصنع ولا رياء؟ بل هل أستطيع قبل كل شيء أن أعلم أين نحن وإلى أين نمضي، وماذا تريد بنا أمنا هذه التي تأمر وتنهى في لهجة حازمة صارمة وإيجاز مقتصد لا يقبل حوارًا ولا جدالًا؟ ذلك أجدر أن أفكر فيه، وأحرى أن أسعى إليه، فلا تبعن أمني إذن ولا تلطفن لها، ولأسألنها في أناة ومودة ورفق حتى أعلم علمها، ثم أنظر بعد ذلك فيما آتي، أو فيما يمكن أن نأتي من الأمر.

كل هذه المعاني تضطرب في نفسي، وعيني لا تكاد تفارق هذا الوجه الهادئ الذي يدل هدوءه على أن أختي ما زالت في تلك الأعماق البعيدة التي كنت فيها منذ حين، لم يبلغها ضوء الشمس وحرّها، ولم يؤذها مس الأرض وغلظها، ولم يصل إليها اضطراب الدواجن وما تملأ به الجو من نشاط ومرح وصياح.

فأنهض متثاقلة مترفقة حتى أهبط فناء الدار ألتمس أمنا، وما كان أيسر الوصول إليها! فقد اعتزلت غير بعيد من السلم وجلست منحنية تعبت في الأرض بأصابعها عبثًا يدلّ على شيء من الذهول، كأنما كانت تناجي همًا ثقيلًا أو تتبع خاطرًا بعيدًا؛ حتى إذا بلغت مسست رأسها بيدي وسألته مداعبة: ما هذه اللعبة التي تلعبين؟ وهلا دعوتني لأكون شريكك في اللعب؟! فإن مثل هذه اللعبة لا تستقيم إذا انفردت بها لاعبة واحدة

...

قالت وقد رفعت إليّ رأسًا حزينًا: أترينني ألعب يا ابنتي؟ قلت: فما عسى أن تفعلني بهذا التراب الذي تذهب فيه أصابعك وتجيء؟

ثم أنهضتها فلم تمتنع عليّ، ومضيت بها إلى ناحية من الفناء لا يكتر فيها اضطراب الأضياف، ونظرت إليها فإذا هي تنقاد إليّ مستسلمة، وإذا حزنها العميق وحنانها القوي قد فاضا على وجهها الشاحب فألقيا عليه مثل وداعة الأطفال.